مراجعة: أنطوان شلحت

(*) الكتاب: "العيش مع النزاع، تحليل نفساني- اجتماعي للمجتمع اليهودي في إسرائيل".

(*) المؤلف: البروفسور دانيئيل بار- طال.

(*) إصدار: منشورات كرمل- القدس، ٢٠٠٧.

يقدّم هذا الكتاب وصفًا علميًا منهجيًا للأساس النفساني- الاجتماعي الذي يقف عليه النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني والإسرائيلي- العربي. ولا يدعي المؤلف تحليل جميع العوامل والمنظومات والسيرورات النفسانية الضالعة في النزاع، بل يركز على الأساسية منها، أي تلك التي تؤثر بصورة بالغة على إدراك الواقع، من طرف المجتمع اليهودي في إسرائيل، بقدر ما تؤثر على السلوك الجماعيّ لهذا المجتمع.

ولعل الإطار النفساني لهذا الكتاب هو من تحصيلات كون مؤلفه، البروفسور دانيئيل بار- طال، باحثًا وأخصائيًا نفسانيًا- اجتماعيًا- سياسيًا سبق أن أشغل منصب رئيس "الجمعية العالمية لعلم النفس السياسي" علاوة على أنه محاضر في جامعة تل أبيب. وتنهل أبحاثه، بقدر كبير، من المقاربة العقلية- الشعورية، التي تعتبر البشر أعضاء في أطر اجتماعية، ونتيجة لذلك فإنهم يتأثرون بهذه الأطر على نطاق واسع.

يتمحور الكتاب، الموزع على عشرة فصول ومقدمة وخاتمة، حول "الريبرتوار" النفساني- الاجتماعي المرتبط بالنزاع لدى اليهود الإسرائيليين، والذي تكوّن وتطور على خلفية النزاع المرير والمتواصل، كما تغذّى أيضًا من الذاكرة الجماعية للشعوب ذات الصلة به. وبحسب ما يؤكد المؤلف فإن الذاكرة الجماعية للحياة في الدياسبورا (الشتات) وذاكرة المحرقة (الهولوكوست) شكلتا وتشكلان عاملاً شديد التأثير على فهم دلالات النزاع الإسرائيلي- الفلسطيني في الجانب اليهودي الإسرائيلي.

لا شك في أن الأساس النفساني للنزاع الإسرائيلي- الفلسطيني مهم للغاية، وإن بدا أنه أدنى أهمية من الأسس الأخرى. وقد أجاد باحث إسرائيلي آخر، هو ميرون بنفينستي، في توصيف أهميته ضمن كتابه "رقصة المخاوف"، عندما كتب يقول:

"إن دراسة النزاع الإسرائيلي- الفلسطيني من وجهة النظر السياسية الصرفة تبقى مقاربة تبسيطية ومضللة. لا يمكن اقتراح حلول سياسية من دون أن تسبق ذلك معالجة حقيقية للمشكلات الميتا-سياسية والنفسانية والاصطلاحية، التي تحول دون أن يأخذ طرفا النزاع في اعتبارهما الحلول السياسية المختلفة بصورة عقلانية (...) يتعين على الذين يعملون في إيجاد الحلول أن يواجهوا نزاعًا أوليًا، أساسيًا ووجوديًا (...) إن مائة عام ونيف من النزاع العنيف قد تركت وراءها رواسب من الخوف، الكراهية، الانتقام والثأر، إلغاء إنسانية القيم وجعلها وحشية، المواقف الانشطارية، القبلية المعادية، الجمود النفساني والمقاربات غير العقلانية".

من العام إلى الخاص

يعتبر بار- طال أن النزاع الإسرائيلي-

الفلسطيني يندرج في نطاق النزاعات الحادة التي لا يمكن السيطرة عليها، أو الخارجة على إمكان التحكم بها. ويرى أن هناك نموذجًا نظريًا عامًا في وسعه تأطير السيرورات النفسانية– الاجتماعية، التي تنميها مجتمعات خاضعة لنزاعات من هذا القبيل. وسوية مع ذلك هناك موضوعات عينية يتميز بها كل مجتمع من هذه المجتمعات على حدة. كما يرى أن جميع المجتمعات الموجودة في غمرة نزاعات خارجة على نطاق التحكم بها تواجه تحديات مماثلة، ما يلزمها بإيجاد بنية تحتية نفسانية– اجتماعية تخدم حاجات المجتمع في ظروف النزاع الحادة. وتشكل هذه البنية التحتية الأساس لنمو ثقافة النزاع وتطورها، وليس فقط ريبرتوار ذلك المجتمع، ولا الموشور الذي ينظر من خلاله إلى واقع النزاع.

يشتمل النموذج العام على ثمانية موضوعات تشكل الفحوى الأساس لثقافة النزاع، وهي: تكريس عدالة أهداف النزاع؛ تحقيق الأمن؛ إلغاء شرعية الخصم؛ التعظيم الذاتي الجماعيّ؛ المفهوم الذاتي كضحية؛ تنمية المشاعر الوطنية؛ الوحدة؛ التطلع إلى السلام. إن هذه الموضوعات حيوية وضرورية في إبان النزاع الخارج على إمكان التحكم به، لكونها تبني الأساس الإبستمولوجي– المعرفي [الأشبه بالأيديولوجيا] للروايات التي ينميها المجتمع. غير أنه في مقابل هذه الموضوعات، التي تعد كونية في النموذج العام، ثمة مضامين عينية تختص بكل مجتمع، وتشمل الأحداث (الوقائع) والأساطير والأبطال والتصاوير والمصطلحات والاستعارات ذات الصلة.

ويركز الكتاب على المضامين الخاصة بالمجتمع اليهودي الإسرائيلي، والتي نمت وتطورت في سياق النزاع الإسرائيلي– العربي، وبالأخص في إطار النزاع الإسرائيلي– الفلسطيني، الذي يعتبر لُبّه. ومع أنه يؤكد أن هذه المضامين قد هيمنت على الخطاب العام وعلى نتاجات الثقافة اليهودية الإسرائيلية في الفترة التي بلغ فيها النزاع ذروته، وهي الفترة التي استمرت في قراءته منذ أربعينيات القرن العشرين الفائت حتى سبعينياته [تحديدًا حتى زيارة الرئيس المصري الراحل أنور السادات إلى إسرائيل في سنة ١٩٧٧]، فإنه يشير إلى أن البنية التحتية النفسانية– الاجتماعية، التي أُنشئت في المجتمع اليهودي الإسرائيلي، تطورت على خلفية معايشات أبعد، زمانًا ومكانًا، لا على خلفية معايشات تلك الفترة فقط. كما أنها تطورت على خلفية العادات والثقافة اليهودية القديمة. وهو يعتبر الهولوكوست المعايشة الأكثر رهبة وفظاعة التي تركت بصمات لا تمحى على كينونة المجتمع اليهودي الإسرائيلي.

لا يجوز، في عرف بار– طال، إدراك كنه السلوك الجماعي اليهودي الإسرائيلي في النزاع الإسرائيلي– العربي والنزاع الإسرائيلي– الفلسطيني من دون أن نأخذ في الاعتبار الصدمة التي مرّ بها هذا المجتمع نتيجة للهولوكوست، ومن دون إدراك الدلالة التي يعزوها لها. وهي تعتبر، في المجمل العام، نموذجًا رمزيًا لمصير الشعب اليهودي على تعاقب أجياله. غير أنه في الوقت نفسه يبدي تحفظه من جعل الهولوكوست بمثابة قوة عليا تغذي سيرورات سلبية، منها: استمرار النزاع؛ عقلية الحصار التي تزعم أن العالم كله ضد اليهود وإسرائيل؛ كراهية الغرباء؛ الانغلاق الذاتي؛ النزعة الذرائعية.

وقد جرى تضمين هذه المعايشات، على مدار أعوام طويلة، في محتويات الثقافة ومضامينها وانتقلت من جيل لآخر، وتعززت بواسطة معايشات اليهود في الزمن الراهن في فلسطين ومن ثم في دولة إسرائيل. ولذا كان من الحتمي، والحالة هذه، أن يُنظر إلى الخصم العربي، في سياق النزاع معه، باعتباره استمرارًا لعداء الشعوب الأخرى، الأغيار [الغوييم]، وحتى باعتباره استمرارًا للوحش النازي. وقد نقلت هذه المحتويات، بصورة مركزة ومنهجية، من خلال جميع مؤسسات المجتمع اليهودي الإسرائيلي وقنواته الإعلامية، في إبان فترة النزاع الخارج على نطاق السيطرة.

غير أن بار– طال يرى أن الوضع في الوقت الحالي يختلف اختلافًا جوهريًا عما كان عليه خلال الأعوام التي بلغ

النزاع فيها ذروته، وعلى الرغم من ذلك فما زال الكثير من الذي يجري إكسابه لأبناء المجتمع اليهودي ينهل من نبع المحتويات الخاصة لما يسميه "روح النزاع". إنّ أداة ذلك هي كتب التدريس؛ الأدب العبري؛ المسرحيات والأفلام الإسرائيلية؛ وسائل الإعلام الجماهيرية؛ خطابات الزعماء؛ الطقوس الرسمية وما شابه ذلك.

ما بين زيارة السادات واغتيال رابين

منذ أواسط السبعينيات في القرن الماضي مرّ المجتمع اليهودي الإسرائيلي في خضم تغيير شديد الأهمية. وقد شكلت زيارة السادات إلى القدس نقطة تحول في تاريخ النزاع، بسبب ما آلت إليه من اتفاقية سلام تاريخية مع مصر. وما كان من الممكن، في رأي بار- طال، ألا يؤثر مثل هذا الحدث الحاسم على الريبرتوار النفساني- الاجتماعي للمجتمع اليهودي. وقد انعكس هذا التأثير في تغيير قسم من أبناء هذا المجتمع معتقداتهم ومواقفهم وأحاسيسهم إزاء النزاع. علاوة على ذلك بدأت تتشكل ثقافة إسرائيلية بديلة لثقافة النزاع. إن أكثر ما يميز هذه الثقافة هو أنها عرضت العربي بصورة إنسانية وفردانية، مع ما ينطوي عليه من حاجات، وما يسعى إليه من أهداف شرعية.

وهكذا فإنه على مدار الأعوام الثلاثين التي انقضت، منذ تلك الزيارة، تغيرت أيضًا المؤسسة الأكاديمية الإسرائيلية إلى حد كبير، وبدأ عدد من الباحثين يطرحون أسئلة لم تطرح في فترة ذروة النزاع الخارج على نطاق السيطرة. وأساسًا استهدف طرح هذه الأسئلة ومحاولة الإجابة عنها أن يكشفا عن نُظم تكريس النزاع، وأن يشيرا إلى النتائج المدمرة المترتبة على ذلك بالنسبة للمجتمع اليهودي الإسرائيلي. غير أنه على الرغم من ذلك بقيت الصورة العامة لدى الجمهور اليهودي الإسرائيلي العريض ولدى الغالبية الساحقة من قيادته مغايرة، إذ أنّ التغيير لدى هؤلاء كان أكثر بُطئًا. ويؤكد المؤلف أن هناك قطيعة شبه تامة بين المؤسسة الأكاديمية، ويقصد القسم النقدي فيها، وبين الجمهور اليهودي الإسرائيلي العريض. ويعتقد أن هذه القطيعة هي إشارة إلى إخفاق المثقفين اليهود الإسرائيليين، غير أنها في الوقت ذاته إشارة إلى إخفاق المجتمع الذي يعيش هؤلاء المثقفون بين ظهرانيه، والذي يرفض أن يصيخ السمع لتبصراتهم.

في الثمانينيات والتسعينيات كان الجمهور اليهودي في إسرائيل منقسمًا في آرائه بشأن إدارة النزاع الإسرائيلي- العربي. وعمومًا كانت الآراء في هذا الصدد موزعة على معسكرين: "معسكر الحمائم" (اليسار) ومعسكر الصقور (اليمين). وبشكل عام كان المعسكر الأول مستعدًا لبضعة حلول وسط من أجل حلّ النزاع، وقد رفع شعار "الأرض في مقابل السلام"، وبدأ يرى أن الفلسطينيين شركاء لعملية السلام. أما معسكر الصقور فلم يكن على استعداد، بصورة عامة، لأي تسوية ورفع شعار التمسك بالمزيد من الأراضي [المحتلة].

يصف بار- طال هذا التقاطب في المجتمع اليهودي باعتباره "نزاعًا ثقافيًا بين الذين يتمسكون بثقافة النزاع وبين الذين بدأوا بتغيير معتقداتهم ومواقفهم من النزاع وبإيجاد روح بديلة". وبلغ هذا النزاع ذروته في التسعينيات مع توقيع رئيس الحكومة الإسرائيلية، إسحق رابين، وثيقة الاعتراف المتبادل مع رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، ياسر عرفات، بعد محادثات أوسلو السرية. وقد عكست هذه الخطوة تغييرًا عميقًا في المعتقدات الخاصة بالنزاع، وكذلك في بنيته التحتية النفسانية- الاجتماعية. غير أن هذا التغيير تعرض لمسّ كبير عندما اغتيل رابين على يد شاب متدين متطرف من اليمين الإسرائيلي [في تشرين الثاني ١٩٩٥]. وكان اغتيال رابين مؤشرًا إلى تراجع عملية السلام مع الفلسطينيين. ولذا فإنه عندما فاز إيهود باراك، في سنة ١٩٩٩، برئاسة الحكومة زاد منسوب الأمل بتسوية النزاع، لكن سرعان ما تبين أنه أمل عبثي. وقد أدى اندلاع الانتفاضة الثانية، وعدم استعداد (أو عدم قدرة) السلطة الفلسطينية لوقفها، وطريقة

القمع التي اتبعها الجيش الإسرائيلي في مراحلها الأولى، إلى وضع حدّ للأمل بحل النزاع بالطرق السلمية.

يلاحظ المؤلف أن تأييد "عملية السلام" في المجتمع اليهودي الإسرائيلي خضع لتغييرات جوهرية على مدار الأعوام المنقضية. فقد تغيرت الموضوعات التي وقفت في صلب عدم الاتفاق بشأن هذه العملية، وأثرت أحداث مختلفة على مدى التأييد لها. وإذا كان بالوسع القول، بشكل عام، إن الانقسام في المجتمع اليهودي الإسرائيلي بين المعسكرين [المؤيد والمعارض] كان متماثلاً في الثمانينيات والتسعينيات، فإن أحداث سنة ٢٠٠٠ [فشل مؤتمر القمة في كامب ديفيد في شهر تموز، واندلاع الانتفاضة الثانية في شهر أيلول] أدّت إلى تغييرات بعيدة المدى لدى هذا المجتمع، كما لدى المجتمع الفلسطيني أيضًا. وتلقى "معسكر السلام" ضربة موجعة تسببت في تقلصه، وهبطت نسبة المنتسبين إليه إلى نحو النصف، مقارنة مع التسعينيات. وألحقت حرب لبنان الثانية، في صيف ٢٠٠٦، مسًا آخر به. ومع ذلك شهد المجتمع اليهودي الإسرائيلي بضعة تبدلات يعتبرها المؤلف دراماتيكية وعميقة الدلالة.

ويكفي، في رأيه، استعراض نتائج استطلاعات الرأي العام للاستدلال على هذه التبدلات الدراماتيكية، حيث أن غالبية الجمهور اليهودي الإسرائيلي باتت تؤيد، في الوقت الحالي، إقامة دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة، بحسب تلك النتائج. كما أن غالبية هذا الجمهور أيدت الانسحاب من مستوطنات قطاع غزة [خطة الانفصال] في سنة ٢٠٠٥، وهي تؤيد المفاوضات مع الفلسطينيين وتبدي استعدادها لتفكيك قسم كبير من المستوطنات الاحتلالية. مع ذلك لا يزال السواد الأعظم من الجمهور اليهودي الإسرائيلي يفتقر إلى الثقة بالفلسطينيين، ويعزو إليهم غاية القضاء على دولة إسرائيل.

إن الاستنتاجات الرئيسة التي يخلص إليها بار- طال من ذلك كله هي ما يلي:

* لا يزال الحاجز النفساني الذي يفصل بين المجتمعين اليهودي الإسرائيلي والفلسطيني عاليًا. ولذا فإن الانتقال من نزاع خارج على نطاق السيطرة إلى عملية سلام يستلزم تغييرًا في البنية التحتية النفسانية- الاجتماعية للمجتمعين الضالعين في النزاع.

* يتضح، أكثر فأكثر، أن المجتمع الذي يسيطر على شعب آخر يدفع ثمنًا باهظًا لقاء ذلك، مع أنه أدنى من الثمن الذي يدفعه الشعب الخاضع للسيطرة. وهذا الثمن ينعكس، أساسًا، في شيوع ظواهر الاستهتار بالقانون، والفساد، وتآكل الحساسية إزاء مصير الآخر الضعيف داخل المجتمع اليهودي الإسرائيلي.

* بالإمكان حل نزاعات عنيفة خارجة على نطاق السيطرة بالطرق السلمية فقط إذا ما تغير الريبرتوار النفساني- الاجتماعي، وطرحت إمكانية التوصل إلى تسويات من خلال المفاوضات، وهذه مهمة صعبة لا يمكن تحقيقها في غضون فترة قصيرة.

إسقاط الشرعية عن العرب والفلسطينيين

يعتقد بار- طال أن إسقاط الشرعية هو أحد العوامل النفسانية الأكثر أهمية للمقاربات والممارسات التي تزيد من حدّة النزاع وتؤججه، كما أنها تؤدي قسطًا في استمراره وفي ارتكاب أعمال تشذ عن المعايير المألوفة حتى في خضم القتال، مثل المسّ بالمدنيين والعقوبات الجماعية.

وفحوى إسقاط الشرعية هو، بشكل عام، عزو صور تنميطية ذات دلالة سلبية متطرفة إلى أبناء جماعة بشرية معينة بهدف نزع السمات الإنسانية عنها.

إن إسقاط الشرعية هو بمثابة إقصاء أخلاقي (Moral exclusion)، وبموجب ما يقوله أوبوتو يتم إقصاء أفراد أو جماعات "خارج الحيز الذي تسري عليه القيم الأخلاقية، والقوانين والاعتبارات العقلانية. والذين يتم إقصاؤهم من الناحية الأخلاقية ينظر إليهم بوصفهم عديمي الأهمية وغير ضروريين أو غير لائقين، ولذا فإن التعرّض لهم [لحيواتهم] يعتبر أمرًا مقبولاً، لائقًا أو مبررًا".

لم يبدأ إسقاط الشرعية عن العرب لدى المجتمع اليهودي الإسرائيلي في

الفترة القليلة الفائتة فقط. إن جذور ذلك موجودة في الماضي، عبر تمثيل العربي كرجل شرقي بدائيّ يميل إلى تنمية علاقات خصومة. هذا المفهوم انضفر في الخطابين الخاص والعام في الييشوف قبل قيام الدولة، وبعد قيامها، وتغلغل في نتاجات الثقافة والتربية، اللتين نمتا وتطورتا في المجتمع اليهودي.

ولقد انعكس إسقاط الشرعية عن العرب داخل المجتمع اليهودي الإسرائيلي في خطابات القادة، وفي تقارير الأنباء والتحليلات التي قدمت وتقدم في وسائل الإعلام، وفي الأدب والمسرح والأفلام وحتى في الكتب التدريسية. كما أن نزع الشرعية عن الفلسطينيين كان واسعًا ورائجًا لدى المؤسسة الإسرائيلية حتى سنة ١٩٩٣. وحتى عندما حاول قسم كبير من المجتمع الإسرائيلي أن يدفع قدمًا عملية السلام مع الفلسطينيين وتم التخلص من نزع الشرعية الممأسسة لدى هذا القسم، واصلت جماعات المعارضة القوية في المجتمع إتباع نهج رفض شرعية الفلسطينيين. وفي نهاية الأمر عندما انهارت عملية السلام واندلعت انتفاضة الأقصى ظهرت نزعة إلغاء الشرعية مرة أخرى وبقوة أكبر في الخطاب العام.

يعيد المؤلف إلى الأذهان أن اليهود الذين أتوا إلى فلسطين، بالأساس من أوروبا، خلال الهجرات الصهيونية التي بدأت في نهاية القرن التاسع عشر، تعاملوا مع العرب الذي قطنوا في المنطقة من وجهة نظر مركزية عرقية جلية، وقد نظروا إليهم بوصفهم متخلفين، قذرين، أميين، يُحرضون بسهولة وعدوانيين. وقد راجت هذه المفاهيم قبل تصعيد النزاع القومي، وشكلت الأساس لإلغاء الشرعية الذي ظهر بكل قوته مع تنامي النزاع الدامي. واستمرت الحال على هذا المنوال أيضًا بعد إقامة دولة إسرائيل. وعلى مدار عشرات الأعوام تركزت الجهود الخاصة في محاولات إلغاء شرعية منظمة التحرير الفلسطينية التي تأسست في سنة ١٩٦٤ وأصبحت بمرور الوقت تمثل تطلعات غالبية الفلسطينيين.

علاوة على إلغاء شرعية منظمة التحرير الفلسطينية استمرت عملية إلغاء شرعية العرب عمومًا والفلسطينيين خصوصًا. والتصاوير البارزة التي يتم إدراج العرب والفلسطينيين ضمنها، في نظر اليهود الإسرائيليين، هي أنهم أناس دونيون من ناحية ذهنية، أغبياء وبدائيون. وينظر إليهم حتى باعتبارهم كسالى فاقدي القدرة على القيام بمهماتهم على أتمّ وجه، إلى درجة تصنيف ما ينجزونه في إطار توصيف "العمل العربي"، وهو تصنيف يشير إلى ممارسة فاشلة مهملة أصبح مصطلحًا شائعًا بين اليهود الإسرائيليين. ويعتبر العرب عامة والفلسطينيون خاصة غير أمينين، عنيفين، وقساة ومستخفين بحياة الإنسان. هذه المعتقدات رائجة تقريبًا بين جميع فئات المجتمع اليهودي في إسرائيل، وتقف في مركز الأساس النفساني- الاجتماعي الذي يزيّن لهم التكيّف للعيش مع النزاع العنيف.

وثمة شهادات مهمة على الريبرتوار النفساني- الاجتماعي للمجتمع اليهودي الإسرائيلي في مضامين الكتب التدريسية.

يقول بار- طال إن المدرسة هي مؤسسة يوجد إجماع راسخ وواسع على دورها كوكيل مركزي للتنشئة، إذ أنه بواسطة الكتب التدريسية ومناهج التعليم وآراء المدرسين ينكشف الطلاب على قيم وأيديولوجيات وتقاليد رائجة في المجتمع. وتعكس الكتب التدريسية الإسرائيلية، عيانًا بيانًا، المعتقدات الاجتماعية الممأسسة، والروح الاجتماعية، والقيم، والأساطير، والأهداف المهمة للمجتمع، والذي يكون بدوره معنيًا بتمريرها إلى الأجيال المقبلة. ومن هنا فإن الكتب التدريسية لا تنقل المعارف الموضوعية والمحايدة فقط، وإنما تنقل أيضًا المعارف التي تخدم حاجات المجتمع، ويتم بواسطتها تكوين الواقع الاجتماعي للأجيال الجديدة. إن هذه الوظيفة تؤديها، في الأساس، كتب تدريس التاريخ، الجغرافيا، العلوم الاجتماعية، المواطنة [المدنيات]، الأدب العبري والتوراة.

حتى التسعينيات، على الأقل، كانت في إسرائيل، على غرار دول أخرى، رقابة صارمة على مضامين الكتب التدريسية. وقد خضعت أجيال كثيرة من طلبة

المدارس لعملية تنشئة سارت في وجهة تعميق ضلوعهم في النزاع. وكانت الكتب التدريسية حافلة بالمضامين التي تلائم البنية التحتية النفسانية- الاجتماعية، التي تدعم استمرار النزاع.

وحتى السبعينيات كانت هذه العملية تحتل الحيز المركزي في جهاز التربية والتعليم الإسرائيلي، الذي رأى الواقفون على رأسه أن المدرسة هي مؤسسة وظيفتها الرئيسة أن تلقن الجيل الشاب الرواية الوطنية الإسرائيلية وقيمها. إن هذه العملية متواصلة إلى الآن، لكن من دون المباشرة وغسل الدماغ، اللذين ميزا العقدين الأول والثاني من قيام إسرائيل.

تذكير وخلاصة

قبل بضعة أعوام من نشر هذا الكتاب قام بار- طال بتمديد الواقع الإسرائيلي على سرير التحليل النفساني.

وقد توصل إلى الاستنتاجات التالية، التي تشف عن دلالاتها بكل وضوح:

١- إن الشعب (اليهودي) في إسرائيل هو شعب غير طبيعي، شعب مفرّق، متشرذم، يعاني من انقسام حاد وعميق للغاية. الجميع يعايش الأحداث ذاتها، لكن ردود الفعل النفسانية عليها مغايرة من النقيض إلى النقيض. فـ"المعسكر القومي" جبري، يتبنى شعار لا حل للنزاع في الشرق الأوسط. إنه يركّب "نظارة سوداء" ويرى عبرها أن المستقبل ينذر بأعظم الشرور. و"المعسكر الحمائمي" مضغوط، هستيري، لكونه يشعر بأنه عاجز وليس في إمكانه التأثير على مجريات الأمور. كلا المعسكرين يهرب من الواقع. "المعسكر القومي" يفعل ذلك بواسطة التنكر لعلائم السلام. "والمعسكر الحمائمي" يعيش في وضعية تنصّل من المسؤولية وهروب من الواقع إلى عالم الخيال (اسكيبيزم). وهو مقطوع من الأحداث، منعزل عن الواقع، أشبه بالذي هاجر دون أن يترك البلاد فعلياً. هذا المعسكر الأخير فقد الدافعية لتغيير الوضع، بينما "المعسكر القومي" لا يرغب البتة في التغيير!

٢- عن السبب النفساني للخوف من التغيير، يقول بار- طال إن إسرائيل استثمرت الكثير في النزاع مع العالم العربي، من ناحية عسكرية واقتصادية وأيضاً من الناحية النفسانية. ولقد تم تشييد أيديولوجية تفسر وتبرر هذا السلوك، ومن الصعوبة بمكان تغييرها. "أسهل أن نواصل رؤية السلبيات لدى الخصم، من أن نبذل جهداً لرؤية ألوان رمادية داخل اللون الأسود". و"الإنسان المرعوب معتاد على الخوف، والأمل في نظره هو شيء غائم وغير مأمون العواقب".

٣- بنيامين نتنياهو: يتطلب تحليل شخصيته العودة إلى "أناه" الخاصة التي كتبها في مؤلفه "مكان تحت الشمس"، الذي أصدره قبل بضعة أعوام. بحسب مفهوم نتنياهو فإن العرب- لا فرق في ذلك بينهم- لن يسلموا قطّ بوجود دولة يهودية في هذه المنطقة. وتفسيره لذلك يستند إلى كونهم يرون في إسرائيل فرعاً من الثقافة الغربية، وبما أنهم يتخذون موقف الرفض والقرف إزاء هذه الثقافة، فإنهم سيبذلون كل ما في مستطاعهم لاقتلاع إسرائيل من هنا، ولكونهم عنيفين وعدوانيين فإن العنف سيبقى "سيد الموقف" هنا. إن بني البشر في حاجة، لا شعورية، إلى مجموعة يكرهونها، وفي ذلك ما يعزّز تراصهم. و"قد فهم نتنياهو هذه الحاجة وقدّم لشعبه وفرة من وقائع إسقاط الشرعية والإنسانية عن العرب، لمجرد كونهم كذلك".

٤- استذكر بار- طال، في مجرى وضع المجتمع الإسرائيلي على أريكة المحلل النفساني، أبحاثاً أنجزها في السابق ودلّت على أن الأطفال اليهود، منذ سنّ الثانية والنصف، يتكوّن لديهم تصور سلبي عن العرب. وخلص من هذه النتيجة إلى الاعتقاد بأن هؤلاء الأطفال يفتقرون إلى مرحلة السذاجة، ويبقى العربي في تصورهم مفردة ملازمة لصفات سلبية، شريرة. وقبل عشرة أعوام، من العام الذي نشر تحليله النفساني فيه، أخضع بار- طال للفحص كتب التدريس العبرية في مواضيع الأدب والتاريخ والجغرافيا والمدنيات، فوجد أنها لا تنفك تكرس النزاع الإسرائيلي- العربي وتمجده. وفي كتب التدريس العبرية المعتمدة في مدارس التيار الديني المتشدد (الحريدي)

جرى تصوير النزاع بألوان أشد قتامًا، وشخصية العربي في قوالب أكثر سلبية وتنميطية. وفي فحص متجدد في سنة ١٩٩٧ وجد أن كتب التدريس العبرية لا تزال تعاني من التثبت في الماضي، من غير أدنى تغيير يتناسب على الأقل مع سيرورة "عملية السلام".

وقد قال في هذا الشأن: يبدو أن السلام بقي خارج حدود المدرسة الإسرائيلية، لأن من ينظر إليه يفعل ذلك بوصفه شيئاً ما منتمياً إلى السياسة تختلف الآراء حوله، أو بوصفه انحرافاً طفيفاً عن مسار التاريخ الحافل بالحروب. ولسان الحال هنا يقول: ما جدوى تغيير الكتب إذا كان السلام، وفق المنظور السالف، فصلاً قصيراً لن يصمد طويلاً؟.

لعل أهم خلاصة يصل إليها الكتاب، كما أبحاث بار- طال السابقة، تتمثل في أن التعامل السلبي حيال العرب، من طرف المجتمع اليهودي الإسرائيلي، يتم اكتسابه في جيل مبكر لدى جميع فئات هذا المجتمع، بصورة غير مرهونة البتة بموقف الفئة المعينة.

بكلمات أخرى، وفقما يقول بار- طال، فإنه حتى التربية في البيت (الإسرائيلي) ليس في إمكانها أن تحول دون اكتساب تعامل ثقافي سلبي إزاء العرب، إذ أنّ أولاد إسرائيل اليهود يتعلمون التنميط السلبي للعربي من ثقافة المجتمع. ويصبح هذا التعامل السلبي مركزيًا لدى معرفة مصطلح "عربي" ويتفاقم في جيل الطفولة حتى سن تسعة- عشرة أعوام، حيث يبلغ ذروته. وبعد ذلك تبدأ ما يمكن اعتبارها سيرورة اعتدال متدرجة، لكن في الحالات جميعًا يظل مفهوم العربي سلبيًا بالمطلق.

ويؤكد بار- طال أن التنميط السلبي يواصل أداء دور مركزي لا في تفسير الواقع فحسب، وإنما يشكل أيضًا عقبة في مسار حل النزاع بطرق سلمية. فالطريق السلبية، التي ينظر من خلالها إلى العرب عامة والفلسطينيين خاصة، لا تنفك تشكل موشورًا يصدر المجتمع الإسرائيلي، اليهودي، عبره حكمه (القاطع) على الخصم. وهو يؤدي، حتمًا، إلى حكم منحرف وانتقائي ومختل يلقي أوزار المسؤولية عن نشوء النزاع واستمراره، وعن منع التوصل إلى حل له، على كاهل ذلك الخصم. وهذا الحكم يتمحور، بصورة حصرية وإطلاقية، من حول "عنف الخصم" فحسب ويحول دون أي تعاطف وجداني حياله ودون أي اعتبار لحاجاته. وهكذا تشكل النظرة السلبية (إلى الفلسطيني) واحدًا من العوامل التي تمنع التقدم إلى الأمام في "عملية السلام".

مراجعة: د. محمد مصالحة

الكتاب: قوس من الآراء: أجندة شرقية للمجتمع الإسرائيلي، القدس، كتب تشرين الثاني، ٢٠٠٧

يونا، يوسي، يونيت، نعمان ودافيد محاف(محررون)،

يطرح كتاب "قوس من الآراء: أجندة شرقية للمجتمع الإسرائيلي"، سيرة وتطور حركة "القوس الديمقراطي الشرقي". وهو يعرض النضالات المختلفة التي قادتها و/أو شاركت بها الحركة، مبادئها الأساسية، كما ويستعرض الكتاب وبإسهاب، الدوامات القيمية التي تتعامل وتتجابه معها الحركة.

تأسست حركة القوس الديمقراطي الشرقي قبل أكثر من عشر سنوات، وتحديدا في أواسط شهر نيسان من العام ١٩٩٦. بادر إلى إقامة هذه الحركة مجموعة تتكون من ٣٧ شخصا، من الجنسين، من اليهود الشرقيين والذين وصلوا أفرادا وجماعات، وبعد عدد من

اللقاءات غير المنهجية سبقت الإعلان الرسمي عن إقامة الحركة، وأفضت إلى إدراك بوجود أرضية قيمية، أيديولوجية وثقافية مشتركة حول موضوعين أساسيين:

الأول هو التشابه بين أعضاء المجموعة، في مسار تبلور "الوعي الشرقي" عند كل مشترك منهم، والثاني هو التشابه برؤيتهم، بقراءاتهم وبتحليلهم للواقع السياسي، الاقتصادي والثقافي الذي يتميز بة المجتمع الإسرائيلي(ص. ١٨).

الكتاب هو عبارة عن مجموعة من ٣٧ مقالة كتبها نشطاء في حركة القوس الديمقراطي الشرقي، إضافة إلى المقالة الفاتحة للكتاب والتي كتبت من قبل محرري الكتاب الثلاثة.

ينقسم الكتاب إلى خمسة أبواب حيث يشمل كل باب على عدد مختلف من المقالات تحاول أن تعالج أبعادا مختلفة ومتعددة متعلقة بالحركة وماهيتها ومبادئها ـــالباب الأول–؛ بعضاً من النضالات القانونية البارزة التي خاضتها الحركة، خاصة النضال حول أراضي الدولة وكيفية توزيعها والنضال في موضوع السكن الشعبي– الباب الثاني–؛ البعد التاريخي لتكون الحركة....–الباب الثالث–؛ الهوية، الثقافة والتعليم–الباب الرابع–؛ دوامات ومواقف نقدية تجاه الحركة–الباب الخامس–.

على الرغم من الخلافات والاختلافات العميقة والمتعددة بين المقالات المكونة للكتاب، ثمة أمران مشتركان بينها: الأول: تطرح هذه المقالات أجندة بديلة، اجتماعية وشرقية للمجتمع الإسرائيلي، في مجالات هوية الدولة ومكانة الهوية الشرقية فيها؛ نوعية العلاقات بين المجموعات الاثنية والطبقية التي تكون المجتمع الإسرائيلي؛ والعلاقة بين الانتماء الشرقي والانتماء إلى الثقافة الشرقية وبين الوضع المتدني لليهود الشرقيين في إسرائيل.

الأمر الثاني، والمرتبط جدليا بالأول، هو طرح هذه المقالات خطابا اجتماعيا متميزا حول موضوعات أساسية في المجتمع الإسرائيلي، مثل التقسيم العادل لأملاك ولخيرات المجتمع؛ الغبن التاريخي لليهود الشرقيين من جانب الحركة الصهيونية والدولة اليهودية، ومكانة "التعددية الثقافية" في المبنى الاجتماعي الإسرائيلي.

يندرج هذان الأمران في سياق محاور عمل القوس الديمقراطي الشرقي، لا بل ويمكن رؤيتهما كانعكاس لهذه المحاور. فكما يدعي المحررون، وكما يبرز في معظم المقالات المكونة للكتاب، فان عمل حركة القوس الديمقراطي الشرقي يتعامل ،كمحور أساسي، مع العلاقات المتبادلة بين اعتراف الدولة بالهويات المتعددة والمختلفة لمواطنيها عامة، ولمواطنيها الشرقيين وذوي الأصول الشرقية خاصة. يرى كاتبو المقالات أن إقامة الحركة وتحديد غاياتها ما هو إلا انعكاس لحسم فلسفي، قيمي وسياسي، يرى بوجود علاقة عميقة بين النضال الاجتماعي–الاقتصادي وبين قضية الهوية عامة والهوية الشرقية خاصة (ص ٢٠).

بمعنى آخر، فان الحركة ترى أنه لا يمكن ولا بأية حال من الأحوال فصل النضال حول الهوية عن النضال لإعادة تقسيم وتوزيع عادل للثروات الاجتماعية (مقالات يوسي دهان واوفير عبو). ينتج عن هذه الرؤيا الادعاء المركزي التالي: إن عملية دمج كامل ومتساو للمواطنين كلهم في المجتمع الإسرائيلي مشروطة بالضرورة بالاعتراف بالثقافة الخاصة لكل مجموعة، أي بتحويل المجتمع الإسرائيلي إلى مجتمع متعدد الثقافات. إضافة الى ذلك، فإنه من غير الممكن الوصول إلى فهم حقيقي لظواهر عدم المساواة الاقتصادية والاجتماعية بين الجماعات المركبة للمجتمع الإسرائيلي، دون التعرض لدور الثقافة القومية الإسرائيلية في خلق عدم المساواة هذه، وتحليلها.

يتمخض عن هذه الرؤيا لحركة القوس الديمقراطي الشرقي ما يلي: إن شرط نجاح النضال من اجل المساواة الاجتماعية والاقتصادية، ومن اجل توزيع عادل للثروة الاجتماعية، هو اعتراف الدولة والمجتمع بالتعددية الثقافية للمجتمع الإسرائيلي وبشرعية هذه التعددية.

إن مركزية الارتباط بين الاعتراف

(بالثقافة عامة وبالثقافة الشرقية على وجه الخصوص) وبين المساواة، تظهر جليا في الفرع الثالث من مبادئ الأساس للحركة، وهو بنص على التالي:

" يعمل القوس (الديمقراطي الشرقي) على استئصال الأفكار المسبقة وعلى اجتثاث الأفكار النمطية التي توجه مؤسسات الدولة التربوية والثقافية، كما ونظرة النخب الثقافية في تعاملها مع الثقافة الشرقية ومع ذوي الأصول الشرقية. يعمل القوس من خلال إيمان واعتقاد بان التغاضي عن هذه الأمراض الاجتماعية، يضر بشكل كبير في إمكانية كل مواطن من مواطني إسرائيل من تحقيق ذاته، كما ويقوض استقرار المجتمع الإسرائيلي" (ص ٢١).

كما يطرح المحررون في مقال المقدمة، وكما يظهر جليا في المقالات التي تكوّن الكتاب، فان الحركة القوس ومنذ لحظة قيامها، رافق فعالياتها أربعة تضاربات أو خلافات أساسية هددت وما تزال، استمرارية وجودها.

تتمحور هذه التضاربات الاربعة، وحسبما تظهر في مقدمة الكتاب، حول المواضيع التالية:

١- مكانة الدين والتقاليد اليهودية في مبادئ القوس وفعالياته. رافق هذا التضارب وهذا الخلاف حركة القوس الديمقراطي الشرقي منذ اللقاءات الأولى لإقامتها. يتمحور الخلاف حول العلاقة الموجودة أو التي يجب أن تكون، بين الدين والتقاليد الشرقية وبين الهوية الشرقية. فقسم من المبادرين لإقامة الحركة، يرى أنه يتوجب عليها التركيز على أهمية الدين في مبادئها، حيث أن اليهودية والتقاليد الشرقيين، يكونان جزءا جوهريا من الهوية الشرقية. مقابل هؤلاء يقف ذلك القسم من المبادرين الذين يعتقدون أن إبراز مكانة الدين والتقاليد في مبادئ الحركة، يحولها وبالضرورة إلى حركة دينية. لقد أدى التوجه العلماني للحركة ببعض الفعالين المركزيين إلى تركها، حيث شعر هؤلاء بان " حركة القوس تحولت الى نظيرة أو مماثلة حركة ميرتس (الاشكنازية العلمانية) بين الشرقيين" (مئير بوزاغلو، ص. ٢٣٥).

٢- موقف "القوس" من الصراع الفلسطيني الإسرائيلي بشكل عام، ومن انتفاضة الأقصى وأحداث تشرين الأول بشكل خاص. ظهرت في هذا السياق توترات بين ثلاثة تيارات: الأول هو التيار "اليميني" والذي أراد المنتمون إليه محورة عمل الحركة في قضايا يهودية-داخلية. التيار الثاني تكون من الاعضاء الذين ادعوا بانه لا يتوجب على الحركة بلورة موقف تجاه الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، رغم مواقفهم السياسية اليسارية. أما التيار الثالث فهم هؤلاء- اليساريون أيضا في مواقفهم- الذين طالبوا بان تتخذ موقفا واضحا من الصراع وأن تعمل بوضوح على إنهاء الاحتلال.

٣- الخلاف حول التمثيل النسوي في القوس. رغم الموقف الواضح والملتزم للحركة للمساواة بين الأجناس، لم تقم بنقاش جوهري حول هذا الموضوع، ما أدى إلى اخراجة إلى خارج إطار الحركة.

٤- خلاف حول تركيبة ومبنى الحركة.

يجدر التوقف عند الخلاف الرابع نظرا لمركزيته بالنسبة لتاريخ تكون القوس كما وبالنسبة لاستمراريته. الخلاف في هذا السياق هو بين هؤلاء من بين المؤسسين الذين أرادوا إقامة حركة تضم نشطاء ، وبين الذين أرادوا إقامة حركة شعبية واسعة تتحول فيما بعد إلى حزب سياسي. بمعنى آخر، الخلاف هو بين الذين يرغبون في بناء حركة شرقية، تمثل الشرقيين، أي حركة طائفية، وبين أولئك الذين يرغبون ببناء حركة شاملة (اونيفرسالية) تضم جماهير واسعة من الشرقيين ومن غيرهم (العرب أيضا).

أدى هذا الخلاف، إضافة إلى الخلافات الثلاثة الأخرى إلى زعزعة حركة القوس الديمقراطي الشرقي، كما وإلى خروج كثير ممن بادروا إلى تأسيسها، من صفوفها. فالحركة، حسبما يرى محررو الكتاب، وحسبما تطرحه المقالات الأخرى المكونة له، فشلت في محاولاتها لنقل رؤيتها لجمهور عريض في المجتمع الإسرائيلي. بل وأكثر من ذلك، فالكثير من أعضاء الحركة ومن كاتبي المقالات في هذا الكتاب يرون أن التوجهات السياسية، الثقافية والاقتصادية التي

يتميز بها المجتمع الإسرائيلي على مدار العقد الأخير، تدل وبدون أدنى شك على عدم استعداده لتبني وجهة نظر الحركة، لا بل واتهامها بأنها تروج إلى فكر والى أجندة مضادة للصهيونية. ففي مقالها تدعي فيكي شيران أنه وفي الخطاب المهيمن في إسرائيل " توصم الشكوى الشرقية (التذمر الشرقي) على أنها تباكٍ وتمسكن، لهذا يشعر الشرقيون بان المركز "الإسرائيلي" الفاضح يرفضهم فيما إذا تبنوا تعريف ذاتهم كشرقيين، وهم يفضلون التنكر لهويتهم" (ص ٨٤). وفي السياق نفسه يدعي، يوسي دهان، أحد الكتاب وأحد القياديين البارزين للحركة، بان تصور الحركة كحركة طائفية شرقية، أخاف الكثير من الشرقيين حتى أكثر من الاشكناز، ومنعهم من الانضمام إليها، "فقسم منهم–خاصة اؤلئك الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى المثقفة– يرون بالشرقية وصمة اجتماعية وهم يعملون على إزالتها من أجل الحصول على هوية إسرائيلية. فبالنسبة لهم، الانضمام إلى حركة القوس ما هو إلا بمثابة دخول إلى ناد هم يريدون أصلا التحرر منة" (ص ٤٦).

تظهر هذه التضاربات والتوترات والخلافات، مدى البلبلة، التخبط وعدم الوضوح الذي يعاني منه كل من ساهم في هذا الكتاب دون استثناء، في تكوين وبناء مفهوم جلي وواضح لماهية الهوية الشرقية. فالاختلافات هنا كثيرة ومتعددة بيد أنها ليست مفاجئة. فالهوية الشرقية تعاني من معضلتين أساسيتين على الأقل، تحولان دون بلورتها كهوية منسجمة ومتناغمة.

المعضلة الأولى تتعلق بالمنتمين إليها. صحيح أن معظم من ينتمي إلى الهوية الشرقية هم من أصول شرقية، غير أن هذه "الحقيقة" لا تحولهم إلى مجموعة متماثلة. فمنهم المصري الأصل ومنهم المغربي ومنهم العراقي وما إلى ذلك. فمثلا، لا يستسيغ بعض المشاركين تصنيفهم كشرقيين، فهم إما "عراقيون" وإما "مغاربة" وإما "مصريون"، وإما "يهود–عرب" وما إلى ذلك. فالهوية "الشرقية" بالنسبة إلى هؤلاء ابتكرت في إسرائيل حيث لم يكن لها وجود أصلا(انظر دافيد محلف، ص ٦٥). زد على ذلك وجود بعض الأعضاء (القلائل) من غير اليهود الشرقيين في الحركة، سواء أكانوا عربا أم اشكنازيين.

المعضلة الثانية، والمرتبطة عضويا وجدليا بالأولى هي معضلة "الآخر" بالنسبة للهوية الشرقية. حيث لا يمكن تحديد الهوية الجماعية كما الفردية دون تحديد الآخر. فمن هو "الآخر" بالنسبة للشرقيين؟ هل هم العرب أم هل هم اليهود غير الشرقيين، أي الاشكناز؟

تبرز هذه المعضلة وبشكل واضح في مقالات الكتاب كلها، وخاصة تلك التي تحاول وبشكل متعمق استيضاح ماهية ومركبات الهوية الشرقية (انظر مثلا مقالات كل من: يوسي دهان؛ دافيد محلف: مئير بوزاغلو؛ يوسي لوس؛ نبيه بشير؛ وسامي شالوم–شطريت).

بالنسبة "للآخر" العربي، يرى بعض المساهمين في الكتاب بالعروبة كمركب أساسي في هويتهم الشرقية، ومنهم من يرى بها مركبا قوميا (يهوديا عربيا مثلا)، ومنهم من يرى بها كأحد الأسس النفسية لهويته. بل وأكثر من ذلك، فحركة القوس الديمقراطي الشرقي رفضت الافتراض الأيديولوجي والذي حسبه الإسرائيلية واليهودية مشروطتان بإلغاء العروبة. فالعروبة إذن هي الآخر وهي "الأنا" في الوقت نفسه. وكما يقول دافيد محلف "العربي هو "الآخر" القومي بالنسبة لي، والثقافة العربية هي من مركبات هويتي ووجودي" (ص ٦٥).

أما بالنسبة "للآخر" اليهودي الاشكنازي، فالبلبلة هنا لا تقل حدتها لا بل وتزداد. فبالنسبة للغالبية العظمى من المشتركين في الكتاب، يعتبر اليهودي الاشكنازي "الآخر الثقافي" إضافة إلى كونه أساس كل الغبن والظلم والتمييز العنصري. لكن مع ذلك، فالأشكنازي هو ليس "آخر" قوميا ، فهو يهودي "مثلنا"!!

ما هو المخرج إذن؟ فالكتاب بكل مقالاته يطرح الحل التالي: تحول المجتمع الإسرائيلي إلى مجتمع "تعددي– الثقافات"، تحظى كل ثقافة به بشرعية من قبل الدولة ومن قبل الثقافات الأخرى المكونة للمجتمع الإسرائيلي. فالتعددية الثقافية تعني الاعتراف

بحقوق الأقليات الاثنية، وكذلك اعترافا بالقيمة المتساوية والاستقلال الذاتي لكل فرد في المجتمع.

يستقي هذا الحل نفسه من التقاليد الليبرالية الحديثة ومن الكتابات الفلسفية المختلفة حول الحرية الفردية والجماعية والتي ترى بهما كماهيات الوجود الفردي والجماعي على حدّ سواء. غير ان هذا الحل المطروح لمشكلة اليهود الشرقيين وللأقليات الاثنية الأخرى المركبة للمجتمع الإسرائيلي، يحتوي في ثناياه وحتى في ماهيته معضلة أساسية بمقدورها الإتيان على كل مشروع التعددية الثقافية، وبالتالي تكريس الغبن، الطبقية وحتى العنصرية التي تريد حركة القوس الديمقراطي الشرقي محاربتها. فالتعددية الثقافية، وفي أحسن أحوالها، ممكن أن تؤدي إلى مدى معين من المساواة الاثنية ولو الشكلية، غير أنها لا تستطيع، إلغاء البناء الطبقي والبناء السياسي، لا بل وتكرسهما. فإذا كان المجال الاقتصادي هو منبع اللامساواة الاجتماعية والتقسيم الطبقي، فان الانتماءات الاثنية والثقافية ما هما إلا عوامل "مساعدة" ذات تأثير كبير على الانتماء الطبقي للفرد، غير أنها ليست العوامل المحددة لهذا الانتماء.

بدل مراجعة

مدخل لمنهجية دراسة المجتمع الإسرائيلي

بقلم: خليل نخلة

اسم الكتاب: "من يهودية الدولة حتى شارون: دراسة في تناقض الديمقراطية الإسرائيلية"

المؤلف: عزمي بشارة

الناشر : مواطن، ٢٠٠٥– رام الله

هدفي من هذه المراجعة هو محاولة الإجابة على تساؤل أساسي بات يقلقني كثيرا. ويتلخص هذا التساؤل بالتالي: كيف يجب أن ندرس ونحلل إسرائيل أو المجتمع الإسرائيلي؟ وبالمقابل، كيف يجب أن ندرس ونحلل مجتمعنا الفلسطيني؟ وبالنتيجة، كيف يجب أن ندرس ونحلل العلاقة بين كلا المجتمعين، وكيف ندرب الباحثين اليافعين على هذه المنهجية؟ المهم في الموضوع هو، برأيي، هل ندرس المجتمع الإسرائيلي كأي باحث مختص في العلوم الإجتماعية والإنسانية، بالرغم من كوننا ضحية ممارسات الإحتلال والقمع والتمييز العنصري الإسرائيلي، أم يجب أن يتميز تحليلنا بخصوصية واضحة وحادة، تعتمد على منهجية ذاتية علمية، تنبع من الممارسة القهرية اليومية، معتمدة على تحليل متأن وواع، ومتحدية بذلك الموضوعية التمويهية (والملفقة!) التي تحاول مدرسة العلوم الإجتماعية في الدول والفئات المهيمنة (والتي أغلب مختصينا هم من نتاجها) فرضها على باحثينا؟ سأتخذ من "شبه مراجعتي" هذه لكتاب عزمي بشارة عن "يهودية الدولة" مدخلا" لتوضيح هذه المنهجية المتوخاة.

يقدم عزمي بشارة في كتابه "من يهودية الدولة حتى شارون" نموذجا فعليا ومبدعا لتفكيك فكري واع للمجتمع الإسرائيلي، يتميز بعمق التحليل وجديته وشموليته وترابط موضوعاته. ويخلص من خلاله لفهم المجتمع الإسرائيلي والتحولات التي طرأت عليه، من جميع جوانبه، مع تحاشي الشرذمة المعهودة في هذا النوع من التحليل، والتعميمات السهلة المرتكزة على معلومات جزئية وأيديولوجيات وقناعات تحجرت مع مرور الزمن، دون أن تتأثر بالتحولات الفعلية. من خلال هذا البحث، يؤخذ القارئ قسرا في رحلة تفكيكية من خمسة أبواب يتعرض فيها إلى تشخيص نظري "لتناقضات الديمقراطية اليهودية"، وبنيويتها الكولونيالية– القومية، والعلاقة بين الدين والدولة؛ وإلى مسألة الأمن والجيش والثقافة

السياسية الأمنية؛ وإلى التغيرات في البنية الإقتصادية وعلاقة العولمة مع لبرلة الإقتصاد والحياة السياسية، وعلاقة إسرائيل مع العولمة دون التعارض مع يهوديتها كدولة؛ وإلى التحولات في السياسة الإسرائيلية مع إظهار نماذج عن الإشكاليات والتناقضات، كما تعكس حالها في طبيعة الأحزاب والممارسة السياسية على أرض الواقع.

يؤخذ القارئ في هذه الرحلة التحليلية ما وراء الأرقام والإحصائيات، ليصل إلى فهم عميق للمجتمع اليهودي-الإسرائيلي في إسرائيل، وإلى إدراك لواقع التحولات التي طرأت عليه خلال ال ٥٠-٦٠ عاما المنصرمة، التي غيرته لتعيد التأكيد على طبيعته الكولونيالية المعولمة، ولترسخ التكامل بين يهوديته وإسرائيليته، ولتبرر الإقصاء المتنامي لمواطنيه غيراليهود، أي الفلسطينيين.

وللتدليل فقط، سأركز على تسلسل المنطق التحليلي بخصوص فكرة "يهودية الدولة".

يستعرض الكاتب مفهوم "دولة الشعب اليهودي" منذ الستينيات من القرن الماضي، ويبدأ بالاعتماد على ما جاء على لسان القاضي أغرانات في تبريره لرفض المحكمة العليا الإسرائيلية "حركة الأرض" من خوض الإنتخابات، بأن "دولة إسرائيل" ليست "دولة مستقلة ذات سيادة فحسب، وإنما أقيمت كدولة يهودية على أرض إسرائيل ... بفعل حق الشعب اليهودي الطبيعي التاريخي ..."، ويصل إلى العام ١٩٩٢ حينما تبنت الكنيست مفهوم "الدولة اليهودية الديمقراطية". ويسترشد الكاتب في تحليله بتصريحات القاضي أهرون باراك، رئيس المحكمة العليا "اللبرالي" و "الأكثر شهرة وتأثيرا"، الذي أكد "على أن الرابط الصهيوني هو أن الواقع ديني سياسي، وأنه لا فرق لديه (أي لدى باراك) في الواقع بين التعابير "دولة يهودية" و "دولة صهيونية" و "دولة اليهود" ... وبهذا المعنى فإن المحكمة العليا ليست إسرائيلية فحسب ... إنها محكمة صهيونية" (ص ٢٩).

ويشير الكاتب إلى العلاقة بين هذا التعريف وقرار الكنيست في العام ٢٠٠٢ القاضي بإلغاء بند "القومية" من بطاقة الهوية الإسرائيلية، والذي جاء، حسب رأيه، "لتجنب البت في قومية كل حامل هوية وعلاقتها بدينه. ولكن إلغاء البند لم ينه النقاش في الواقع ولم يحسمه، بل تكتم عليه" (ص ٣٣).

وحدد أهرون باراك، رئيس المحكمة العليا، في العام ١٩٩٧ ، مضمون "يهودية الدولة" في البنود التالية، بأنها:

* "دولة الشعب اليهودي ... يحق لكل يهودي أن يهاجر إليها ...".
* "دولة يتشابك تاريخها ويندمج في تاريخ الشعب اليهودي. لغتها عبرية وأعيادها تعكس إنبعاثها القومي".
* "دولة تعتبر الإستيطان اليهودي في حقولها ومدنها على رأس سلم أولوياتها".
* "دولة تكرس ذكرى اليهود الذين ذبحوا في المحرقة، وتشكل حلا لمشكلة الشعب اليهودي الفاقد الوطن والإستقلال ...".
* "دولة تنمي الثقافة اليهودية والتربية اليهودية وحب الشعب اليهودي".
* دولة تحقق "تطلع الأجيال لخلاص إسرائيل".
* "دولة تتبنى قيم الحرية والعدالة والإستقامة والسلام من إرث إسرائيل".
* "دولة تستقي من التقاليد الدينية، والتوراة هي الكتاب الرئيسي بين كتبها، وأنبياء إسرائيل هم أساس أخلاقياتها".
* "دولة تلعب فيها الشريعة اليهودية دورا مهما ..."
* "دولة تعتبر قيم توراة إسرائيل والتراث اليهودي وقيم الشريعة اليهودية من بين قيمها الأساسية" (ص ٣٨-٣٩).

وإعتمادا على ما جاء أعلاه، يخلص الكاتب إلى الإستنتاج بأن "يهودية الدولة" هي الموجه الرئيس والمشرعن الأساسي لعنصرية التعامل مع الفلسطينيين، في المجالات التالية:

* "هي الأداة التي جعلت بإمكان الدولة أن تسن القوانين الرامية إلى مصادرة أراضي العرب".
* وهي التي "جعلت إسرائيل ترفض

حق عودة اللاجئين".

* وهي الأساس "لسن قانون الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية ...".

* وهي الأساس لسن "جملة من التشريعات العنصرية"، مثل قانون "المواطنة والدخول إلى إسرائيل (مؤقت) ٢٠٠٣" (ص ٤٠).

ويربط الكاتب ما جاء أعلاه مع مفهوم المواطنة، ليصل بنا هذا التحليل إلى الإستنتاج التالي:

"في إسرائيل، خلافا للدول القومية الأخرى ... لا تتطابق الأمة مع المواطنة، فليس كل مواطن إسرائيلي جزءا من الأمة الإسرائيلية التي لا تعترف المؤسسة الرسمية أصلا بوجودها. بموجب الموقف الرسمي، فإن أكثرية السكان في إسرائيل هم يهود ينتمون إلى أمة عالمية هي الأمة اليهودية. والنقاش الجاري في إسرائيل حاليا هو فقط بشأن ما إذا كانت دولة اليهود تعدو ذلك لتكون دولة يهودية، أي دولة ذات طابع ديني يهودي" (ص ٤٨).

والتساؤل الذي يطرح نفسه في هذا الإطار هو كيف تخطت "القيادة الصهيونية التاريخية العلمانية" الحاجة إلى "بوتقة الصهر الأوروبية" لتكوين "ثقافة-يهودية إسرائيلية عبرية"؟ ويزودنا الكاتب بتحليل واضح لهذه التحولات التي أدت بالنتيجة إلى مستوى عال من "التطرف القومي" في إطار دولة "حديثة"، نجحت في "تلفيق" مسوغات كافية للحصول على قبول عالمي:

"لقد زالت الحاجة إلى بوتقة الصهر الأوروبية بعد أن نشأت ثقافة-يهودية إسرائيلية (عبرية)، ولم يعد اكتشاف وكشف التعددية الطائفية يهدد وحدة الأمة، بل أصبح يتم في إطارها. لقد ضعفت النخب العلمانية الصهيونية القديمة بعد أن انتصرت، وانتقلت عملية إنتاج النخب السياسية والثقافية من الإستيطان الزراعي إلى المدينة الإسرائيلية الكبيرة ... بعد أن تضاءل نصيب الإنتاج الزراعي من مجمل الدخل القومي، وأصبحت الحاجة إلى الاحتفاظ بالاستيطان الزراعي حاجة أيديولوجية أكثر مما هي اقتصادية، وأصبحت النخب الأوروبية التي تكمل طريق النخب الصهيونية الطلائعية الاستيطانية القديمة هي النخب العلمانية اللبرالية المرتبطة بالصناعة المتطورة وبعملية العولمة الصناعية والثقافية، والتي ما لبثت أن وجدت نفسها منخرطة في صراع حول طبيعة دولة إسرائيل العلمانية أمام ثقافة يمينية ودينية تلتقي في التطرف القومي وفي رفع قيمة الأمة العضوية فوق قيمة الدولة وأيديولوجيتها ..." (ص ١٦٥).

"وبعد أن كانت "دولة اليهود" ذات السيادة هي المكون الأساسي ل "الأمة اليهودية"، أصبحت الهوية اليهودية بشكلها الناتج عن فاعلية الدولة المركب الأساسي للدولة، هذا على مستوى الثقافة السياسية للنخبة. أما على مستوى الثقافة الشعبية، فقد أدت عملية تعميم الديمقراطية وعملية الخصخصة إلى ازدياد قوة وتأثير الثقافة الجماهيرية التي تم الاحتفاظ بها شعبيا عند اليهود الشرقيين وغيرهم في مرحلة قمع هذه الثقافة رسميا وسيطرة أيديولوجيا بوتقة الصهر الأوروبية العلمانية ... فمصدر الحقوق في دولة اليهود هو الانتماء لليهودية، وذلك الذي يرى حقوقه مهضومة في هذه الدولة يتبع إستراتيجية التشديد على يهوديته من أجل نيل هذه الحقوق! وبالنسبة للمواطن اليهودي ذي الأصول العربية، يكون ذلك بالتأكيد على يهوديته، وغالبا ما يتضمن هذا التأكيد المجاهرة بكره العرب أو إحتقارهم" (ص ١٦٩).

وهكذا تصبح:

"يهودية الدولة أيديولوجيا سائدة تمنع فصل الدين عن الدولة، وتدفع للتأكيد على الهوية اليهودية، وعلى الإنتماء، أي على العضوية في الجماعة كأوراق ثبوتية في الملكية على الدولة. بهذا المعنى لا يوجد أساس حقيقي للمواطنة الفردية القائمة على حقوق وواجبات منفصلة، وإنما يسود شعور عام بملكية جماعة على الدولة والعضوية في الجماعة هي أسهم ملكية، وكراهية العربي في حالات معينة هي تأكيد للهوية" (ص ٣١٢).

سأنتقل الآن لموضوع دراسة المجتمع

الإسرائيلي. قلت في البداية بأن هدفي من هذه "المراجعة" هو تحفيز التفكير مجددا حول كيف يجب أن ندرس ونحلل المجتمع الإسرائيلي، لقناعتي بأن المنهجيات المستعملة، بشكل عام، ليست مرضية وكافية لتزويدنا بالفهم المتكامل والشمولي والعميق للتحولات الإستراتيجية في هذا المجتمع.

نقطة البداية، في رأيي، يجب أن تنصب في تحديد الهدف الفلسطيني من دراسة المجتمع الإسرائيلي. اهتمامنا بتحليل وفهم المجتمع الإسرائيلي يختلف عن اهتمامنا بفهم المجتمع المصري أو الفرنسي، على سبيل المثال. من ناحية، هم أعداؤنا، يسيطرون ويؤثرون على حياتنا اليومية وعلى مصيرنا ومصير أجيالنا، إلخ. ومن ناحية أخرى، نتشابك معهم في الأرض والاقتصاد والموارد الطبيعية، ونتنافس معهم على روايتنا التاريخية وعلى انتمائنا الجغرافي والحضاري والقومي وعلى نهج تفكيرنا بمجمله. باختصار، هم يتنافسون معنا على تحديد مصير فلسطين. ولهذا فإن واجبنا القومي والمصيري أن نفهمهم بدقة وبعلمية، وأن نؤطر ما يقولون، إعلاميا وأكاديميا وأمنيا وسياسيا، في حجمه الطبيعي، بدون انفعال أو شعارات أو تهويل أو انبهار. فهمنا الدقيق لهم ولتفكيرهم الإستراتيجي مكون أساسي في تخطيطنا الإستراتيجي لمستقبلنا في فلسطين.

من هذا المنطلق، سأركز على بعض مقومات منهجيتنا في دراستهم:

١- تحليلنا يجب أن يتسم بالشمولية وليس بالجزئية، أي يجب أن نركز على إستراتيجية التفكير الإسرائيلي— تحليل لتخطيطهم لربط الاقتصاد مع النظرية الأمنية ومع تطلعاتهم لموقعهم الإقليمي والعالمي، ولتحالفاتهم العالمية، كدولة يهودية ذات قوة عسكرية، تتحكم بمنطقة الشرق الأوسط، وتهدف لتكون المرجعية ليهود العالم، وتأثير العولمة على مجتمعهم من حيث ترسيخ اللامساواة وتعظيم الفوارق الاجتماعية، إلخ.

٢- تحليلنا لتطورات عينية في فترة زمنية محددة يجب ألا يكون منفصلا، وأن يرتبط بالتحولات والمؤشرات العامة التي تجتاح المجتمع الإسرائيلي وتتراكم فيه منذ إنشائه، وأن يجمع هذا التحليل بين الكم والنوع، وأن يسعى دوما لإبراز فهم للإحصائيات ولما وراء الأرقام. سرد الإحصائيات فقط ليس كافيا، ولا يساعد في تعميق الفهم المطلوب.

٣- من المهم أن نرصد ونتابع ما يقولون وما يكتبون، وأن نحاول أن نفهم كيف يرى الإسرائيليون أنفسهم، إعتماد على دراساتهم لذاتهم، واعتماداً على المراجع الأولية (وهي كثيرة)؛ ليس فقط تكرار ما يقولون، وقبوله كحقيقة مثبتة، ولكن تحليل مايقولون من منظور نقدي ومقارن ومرتكز على أدبيات نظرية ذات العلاقة.

٤- يجب أن ندرس ونحلل المجتمع الإسرائيلي ليس كحالة خاصة تختلف عن المجتمعات والدول الأخرى، ولكن، في الوقت ذاته، ليس كأي مجتمع أو دولة أخرى، إنما الجمع بين الإثنين. ويجب أن نراعي في تحليلنا دائما الهدف الإستراتيجي الذي يوجه خططهم وممارساتهم، بشكل عام.

مراجعة: د. محمد مصالحة

الكتاب: فجوات مواطنة - هجرة، خصوبة وهوية في إسرائيل

تحرير: يوسي يونا وأدريانا كِمب

إصدار: معهد فان لير ودار النشر "هكيبوتس هكئوحاد" ٢٠٠٨

صدر مؤخرا عن معهد فان لير في القدس ودار النشر "هكيبوتس همئوحاد" كتاب بعنوان "فجوات مواطنة - هجرة، خصوبة وهوية في إسرائيل"، تضمن مجموعة مقالات، عبارة عن دراسات أكاديمية، حررها البروفسور يوسي يونا والدكتورة أدريانا كِمب. وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أبواب: الهجرة، والخصوبة وإدارة السكان، وسياسة الهويات. وتناولت المقالات

الاتجاهات الاجتماعية والسياسية التي أنتجت "فجوات مواطنة" في المجتمع داخل إسرائيل والممارسات التي تستخدمها المجموعات السكانية المختلفة خلال محاولتها مواجهة هذه الفجوات. ويركز الكتاب بصورة خاصة على أنظمة الإقصاء للدولة القومية بحق مجموعات بداخلها، والمجموعات الممنوعة من الانتماء إليها أو المدفوعة نحو الهوامش السياسية والاقتصادية والثقافية – خصوصا الفلسطينيين داخل الخط الأخضر واليهود الشرقيين. ومن الجهة الأخرى، يتناول الكتاب أنظمة الدولة لاحتواء أفراد ومجموعات في المجتمع الإسرائيلي – خصوصا اليهود الأوربيون والأميركيين.

ولا شك أن العرب في إسرائيل هم أكثر المجموعات تعرضاً للتمييز والظلم منذ قيام إسرائيل. ولا ينحصر ذلك في إقصائهم عن مراكز الحياة السياسية والاقتصادية، وإنما تسعى المؤسسة الحاكمة في إسرائيل حتى لتحديد نسل العرب، واعتبارهم مؤخرا، على لسان رئيس جهاز الأمن العام (الشاباك)، يوفال ديسكين، بأنهم يشكلون من خلال تزايدهم "خطرا استراتيجيا" على إسرائيل. ويتناول أستاذ العلوم الاجتماعية الفلسطيني إيليا زريق في مقال تضمنه الكتاب، وجرت ترجمته من العربية إلى العبرية، الخطاب الإسرائيلي حول التوازن السكاني العربي – اليهودي. ويشير زريق إلى تصاعد حدة هذا الخطاب في أوساط الأكاديميين والسياسيين والصحافيين في إسرائيل. وحتى أن هذه الأوساط تتحدث في سياق تعاطيها مع الديمغرافيا عن "خطر" يشكله تزايد السكان العرب (الفلسطينيين) داخل الخط الأخضر. وليس هذا وحسب، بل أن دعوات وأبحاث إسرائيلية تطالب الجهات الدولية باستمرار العمل على وضع سياسات تشجع تحديد النسل بين الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، مستخدمة ذرائع مثل أن تحديد النسل من شأنه أن يدفع المجتمع الفلسطيني نحو التطور والحداثة.

ويشير زريق في هذا السياق إلى الوسائل التي تسعى المؤسسة الإسرائيلية بواستطها إلى محاربة التزايد السكاني بين العرب. ولفت بداية إلى أفكار كتبها مؤسس الصهيونية الحديثة، ثيودور هرتسل، في مذكراته في نهاية القرن التاسع عشر، وتحدث فيها عن وجوب "تبخير" الفقراء العرب، الذين يشكلون الغالبية من السكان، من فلسطين عن طريق ترحيلهم عن البلاد. وبعد ذلك بنحو عقدين تحدث مؤسس إسرائيل دافيد بن غوريون، في مذكراته هو الآخر، عن وجود علاقة جينية بين اليهود والفلاحين الفلسطينيين. ويذكر زريق أن بن غوريون جمع حاخامات كبار، بعد قيام إسرائيل، وبحث معهم في مسألة تهويد الفلسطينيين الذين بقوا في وطنهم. إلا أن هذه الفكرة لم تخرج طبعا إلى حيّز التنفيذ. واستمرت الحركة الصهيونية منذ هرتسل وحتى بعد قيام إسرائيل في بحث ترحيل الفلسطينيين عن وطنهم حتى تم ذلك فعلا في نكبة العام ١٩٤٨.

ومنذ سنوات الخمسين من القرن العشرين وحتى سنوات التسعين لم يتضمن الخطاب الإسرائيلي مسألة الترحيل بصورة واسعة، لكن هذا الخطاب عاد إلى مركز الأحداث بعد تأسيس حزب "موليدت" بزعامة رحبعام زئيفي ودخوله الكنيست في العام ١٩٨٨. وقد دعا هذا الحزب صراحة لترحيل الأقلية العربية الفلسطينية من إسرائيل. وتصاعدت حدة الخطاب الترانسفيري في إسرائيل من خلال حزب "إسرائيل بيتنا" بزعامة أفيغدور ليبرمان والذي دخل الكنيست في العام ١٩٩٩، والذي تضمن برنامجه السياسي تبادل أراضٍ وسكان عرب بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية من خلال ضم الكتل الاستيطانية في الضفة الغربية لإسرائيل مقابل ضم مدن وقرى عربية للسلطة الفلسطينية. ولا يزال هذا الخطاب مستعرا حتى يومنا هذا، ويتغلغل بين الجمهور الإسرائيلي وحتى أنه يلقى تأييدا متزايدا وفقا لاستطلاعات رأي منشورة مؤخرا. ويساعد في اتساع دائرة المؤيدين لأفكار ليبرمان كثرة الحديث في إسرائيل حول "الخطر الديمغرافي".

وبعد قيام إسرائيل تم وضع مخططات

لعزل الفلسطينيين عن مركزهم الثقافي والحضاري العربي. وإلى جانب ذلك سعت المؤسسة الإسرائيلية إلى إقصائهم عن المركز السياسي والاقتصادي والثقافي في إسرائيل نفسها، ليعيشوا على الهامش، إلى جانب محاولات الحد من التزايد السكاني للعرب. ولعل ابرز الوسائل التي تتبعها المؤسسة الإسرائيلية لتنفيذ سياستها هذه تندرج في تقليص مخصصات الأولاد التي تدفعها مؤسسة التأمين الوطني. وجاء هذا التقليص في الخطط الاقتصادية التي وضعها وزير المالية بنيامين نتنياهو، بين السنوات ٢٠٠٣ و٢٠٠٥، وصرح أنها تهدف للحد من التزايد السكاني للعرب. ويشير زريق إلى منع لم شمل عائلات عربية فيها أحد الزوجين فلسطيني من غير مواطني إسرائيل، بموجب تعديل قانون المواطنة. ويخلص زريق إلى أن "العامل الديمغرافي، أكثر من أي شيء آخر، هو المحرك لسياسات إسرائيل بما في ذلك بناء ما يسمى بـ 'الجدار الأمني' الذي يخنق حياة الآلاف من الفلسطينيين ويحرمهم من حياتهم الطبيعية...".

وفي سياق متصل يتناول مقال الباحثين شوهام ميلاميد ويهودا شنهاف سياسة تشجيع الولادة لدى اليهود ومحاربتها لدى العرب. وأشارا إلى أن "الادعاء السائد في الدراسات التي تتناول سياسة الخصوبة الإسرائيلية هو أنه منذ قيامها بلورت الدولة سياسة معاكسة تجاه المواطنين وفقا لانتماءاتهم القومية: سياسة تشجيع الولادة تجاه اليهود، وسياسة محاربة الولادة، بهدف تقليصها، وحتى تقليلها وقمعها، تجاه المواطنين غير اليهود – خصوصا تجاه الفلسطينيين مواطني إسرائيل". كذلك "يعتبر الباحثون أنه لأن الصراع العربي الإسرائيلي والخصوبة العالية لدى الفلسطينيين يهددان وجود الدولة ويشكلان خطرا على الأغلبية اليهودية فيها، فإن القومية اليهودية في صلب بلورة السياسة الديمغرافية في إسرائيل". إلا أن الباحثين يؤكدان على أن المؤسسة الإسرائيلية تسعى لمحاربة الولادة العربية من خلال الادعاء بوجوب تقليص الولادة من أجل مواكبة التطور العصري والنمو الاقتصادي.

من جهة أخرى ترى ميلاميد وشنهاف أن سياسة محاربة الولادة تتجاوز الصراع القومي وتدخل إلى الاختلاف الطائفي بين اليهود أنفسهم، "فالدولة لا تنفذ سياسة تشجيع الولادة تجاه جميع مواطنيها اليهود". وأضافا "اننا ندعي بأن بلورة سياسة الخصوبة تأثرت، على الأقل في الفترة التي تمت دراستها [بين السنوات ١٩٥٠ – ١٩٦٦]، ليس فقط بصراعات ديمغرافيا على المستوى العرقي – القومي – أي بين العرب واليهود، وإنما أيضا بعلاقة القوة والصراعات بين مجموعات يهودية، وخصوصا صراعات 'طائفية' وطبقية بين يهود أوروبيين (أشكناز) ويهود عرب (شرقيين)".

وتشير ميلاميد وشنهاف إلى أن الباحثين الإسرائيليين لم يلتفتوا إلى أن سياسة عدم تشجيع الولادة شملت أيضا مجموعات يهودية بسبب الرؤية النظرية الواسعة التي يتميز بها البحث الذي يتناول تحليل السياسة التي تشجع اليهود على الولادة. وكان شنهاف قد وصف، في دراسة سابقة، هذه الرؤية لدى الباحثين الإسرائيليين ب "المنهجية الصهيونية".

التهويد

تستخدم المؤسسة الحاكمة الإسرائيلية تهويد المهاجرين غير اليهود إليها في صراعها الديمغرافي مع الفلسطينيين. وبحسب دراسة تضمنها الكتاب حول تهويد وتجنيس المهاجرين أعدها الباحث الأنثروبولوجي يهودا غودمان، فإنه "على ضوء 'الخطر الديمغرافي' فقد استعدت الدولة بواسطة مؤسساتها المختلفة لتحسين التوازن الديمغرافي لصالح اليهود في إسرائيل". ويجري النشاط التهويدي خصوصا في صفوف المهاجرين من دول الاتحاد السوفييتي السابق الذين قدموا إلى البلاد في إطار الهجرة الكبيرة في مطلع تسعينيات القرن الماضي ويبلغ عدد اليهود بينهم نحو ٣٠٠ ألف، وايضا في صفوف المهاجرين الأثيوبيين.

والمثير في مسألة التهويد خلال السنوات العشر الأخيرة، هو أن الحكومة الإسرائيلية كلفت حاخامات التيار الديني القومي، وهو تيار يهودي يميني متطرف، بالإشراف على عملية تهويد هؤلاء المهاجرين. ويأتي هذا التكليف وسط معارضة التيار اليهودي الأرثوذكسي الحريدي، وبهدف تسريع عملية التهويد وعدم فرض أعباء على المتهودين. وانطلاقا من هذا المنظور السياسي للحكومة الإسرائيلية، فإن عملية التهويد لا ترضخ لاعتبارات دينية فحسب وإنما أيضا، وبالأساس، لاعتبارات المواطنة ودخول المهاجرين المتهودين تحت كنف التوجهات الإسرائيلية الصهيونية. ولضمان نجاح هذا التوجه، فقد عمل رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق، أريئيل شارون، خلال العامين ٢٠٠٣/ ٢٠٠٤ على نقل المسؤولية عن عملية التهويد إلى مكتب رئيس الحكومة، وخصوصا بعد حل وزارة الأديان. كذلك هناك مسار تهويد آخر يتم في إطار الخدمة العسكرية للمهاجرين وأبنائهم.

ولفت غودمان إلى أن قرارات المحكمة العليا الإسرائيلية "تعكس توجها متصاعدا لمنح شرعية لعمليات التهويد غير الأرثوذكسية". وأضاف أنه "هنا أيضا تبرز سياسة الهويات التي في إطارها تجري المفاوضات المعقدة لعملية التجنيس بواسطة التهويد". وتدخل عملية إقصاء اليهود الشرقيين في هذا السياق أيضا. وكتب غودمان أن "المحكمة [العليا] لم تفكر بالاعتراف مثلا بتعريف اليهودية أو بعملية تهويد نابعة من وجهة نظر لهوية يهودية قريبة من تعريف اليهودية 'المحافظة' (شرقيين)، وحتى أن أبناء اليهودية 'المحافظة' لم يخطر على بالهم التوجه للمحكمة العليا للحصول على مساعدتها".

نساء فلسطينيات ومهاجرون روس في الجامعة العبرية

وتضمن الكتاب أيضا دراسة شملت بحثين ميدانيين حول النساء الفلسطينيات من مواطني إسرائيل والمهاجرين من دول الاتحاد السوفييتي السابق في الجامعة العبرية في القدس. وقارنت الدراسة بين تجربة الدراسة الجامعية للمجموعتين على خلفية ثقافة كل واحد من المجتمعين. ويظهر البحث الميداني حول النساء العربيات، الذي أعدته لورين اردريخ، أن الطالبات العربيات في الجامعة العبرية جئن من مجتمع بطريركي لا يولي اهتماما كبيرا لتعلم المرأة في الجامعة، فيما أظهر البحث الميداني حول المهاجرين الروس، الذي أعدته يوليا ليرنر، أن مجتمع المهاجرين الروس يولي اهتماما متساويا حيال تعليم الرجال والنساء في الجامعات.

وتشير المقارنة بين المجموعتين إلى أن الطالبات العربيات لا يتغلغلن في المجتمع الإسرائيلي داخل الجامعة وأنهن "يتحصنّ خارج" هذا المجتمع، فيما يسعى الطلاب الروس إلى "التغلغل للداخل" في هذا المجتمع. ويتناول البحث حول الطالبات العربيات التمييز اللاحق بهن من جانب الجهاز البيروقراطي للجامعة، رغم أنه في بعض الأحيان، وبعد تقديم شكوى لمسؤولين في الجامعة يتم تصحيح الغبن اللاحق بهن. ومن الجهة الأخرى يتحدث البحث حول المهاجرين الروس عن مصاعب يواجهونها وأبرزها في مجال اللغة وعدم أخذ أساتذة الجامعة هذه الناحية بعين الاعتبار.

وفي سياق الهجرة من دول الاتحاد السوفييتي السابق، خصص الباحث يوسي يونا دراسة لموضوع محاربة إسرائيل لظاهرة "تسرب" اليهود الروس المهاجرين من وطنهم إلى دول أخرى غير إسرائيل وخصوصا الولايات المتحدة. وذكر يونا بصفة خاصة هجرة اليهود من الاتحاد السوفييتي في العام ١٩٨٨. فقد "تسرب" في هذا العام ٨٨٪ من المواطنين السوفييت اليهود الذين هاجروا من وطنهم ولم يصلوا إلى إسرائيل وإنما فضلوا الهجرة إلى الولايات المتحدة خصوصا وأيضا لدول أوروبية غربية.

وتغير هذا الوضع بعد العام ١٩٩٠ حيث وصل في هذا العام والعامين اللذين تبعاه لإسرائيل نحو مليون مهاجر من دول الاتحاد السوفييتي، الذي أوشك على الانهيار حينئذ. ووصل هذا العدد الكبير من المهاجرين الروس إلى إسرائيل بسبب تغيير مقاييس الهجرة في كل من

الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة. وفيما خفف الاتحاد السوفييتي القيود التي كان يفرضها على مواطنيه وسمح بالهجرة، فرضت الولايات المتحدة قيودا مشددة على الروس اليهود الذين يهاجرون من الاتحاد السوفييتي.

وتواجه إسرائيل قضايا هجرة متنوعة، غير الهجرة اليهودية. فقد تناولت دراسة للباحثة أدريانا كِمب، تضمنها الكتاب، موضوع المهاجرين الذين يصلون إسرائيل للعمل. وأصبح هذا الموضوع محل نقاش في إسرائيل خلال سنوات التسعين من القرن الماضي. ولعل هجرة العمال الأجانب إلى إسرائيل قد أخذت مدى أوسع في أعقاب اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية في العام ٢٠٠٠ ومنع إسرائيل للعمال الفلسطينيين من الدخول بأعداد كبيرة للعمل في حرف لا يمارسها الإسرائيليون في العادة، مثل أعمال البناء والزراعة.

وتقول كمب إن فتح أبواب إسرائيل "أمام مهاجري العمل يضع دولة إسرائيل في مواجهة مع تعريفها على أنها دولة هجرة يهودية فحسب، وتحولها رغما عنها إلى دولة هجرة بصورة فعلية". وهذا التناقض يشكل "تذكيرا مؤلما بصورة خاصة" لدى الحديث عن مكانة أبناء المهاجرين العمال، لكنه في الواقع يعبر عن "تناقضات بنيوية تميز دولا قومية في عصر العولمة الليبرالية الجديدة". وتلفت كمب إلى أن "مصدر هذه التناقضات هو السياسة الاقتصادية الليبرالية الجديدة التي تسعى إلى إزالة الضوابط أمام دخول قوة عمل رخيصة من جهة، وفي الإرادة العنيدة للدول القومية بالحفاظ على تجانس قومي من الجهة الأخرى". وترى كمب أن دولا أوروبية واجهت هذه الإشكاليات عندما استوعبت مهاجري العمل [وخصوصا من الدول الأفريقية والإسلامية] وهي تواجه الآن "مشكلة الهجرة".

ولا شك في أنه بالإمكان الإضافة إلى ما جاء في دراسة كمب الهجرة الجديدة التي تصل إسرائيل في السنتين الأخيرتين من الدول الافريقية. وبحسب آخر المعطيات فإنه وصل إسرائيل في السنوات الخمس الأخيرة ١٠ آلاف أفريقي تسللوا إليها عبر الحدود مع مصر، بينهم ٧ آلاف تسللوا في العام الأخير وحده. وقسم من هؤلاء هم مهاجرون يصلون إلى إسرائيل بحثا عن عمل وعن حياة افضل، فيما قسم آخر هم فارون من حروب في موطنهم وخصوصا من إقليم دارفور السوداني. وقبل شهور وافقت الحكومة الإسرائيلية، تحت ضغوط دولية، على اعتبار قسم من هؤلاء على أنهم لاجئون.

مكتبة

اعداد:

تماضر محمود ملحم

اسم الكتاب: أفكار اسرائيلية

المؤلف: مناحم برينكر מנחם ברינקר

دار النشر: كرمل

تاريخ النشر: كانون الثاني ٢٠٠٨

يحتوي الكتاب على مقالات ونظريات تتطرق للمجتمع والثقافة . عشرة مقالات تطرح مسألة الهوية اليهودية، الصهيونية،اسرائيل، وحركات العمل. اربعة ابحاث اضافية ذات طابع اكاديمي تلمس موضوع اليهودية . كما وانه يتناول فترة رابين ما قبل وما بعد غيابه .

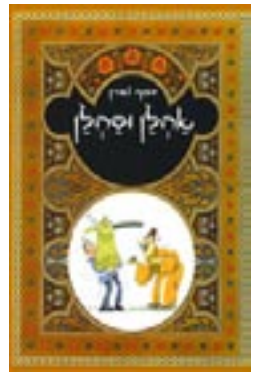

اسم الكتاب: أهلا وسهلاً.

المؤلف: يوسف موران יוסף מורן

دار النشر: يسود

تاريخ النشر: كانون الأول٢٠٠٧.

عدد الصفحات:٩٢

"أهلا وسهلا"، كتاب جامع للمصطلحات ، الكلمات والامثال العربية التي اصبحت جزءاً من اللهجة الشعبية في اللغة العبرية حتى اصبحت مع مرور الوقت جزءاً من اللغة العامية ، هذا المجمع اللغوي يقص حكايا مسلية ونكتا مختلفة تعكس الثقافة العربية . كما وانه يشرح معاني الكلمات والمصطلحات متى وكيف يتم استخدامها.

اسم الكتاب: موسى بشقلبة أحرف

المؤلف: دفير تسور דביר צור

دار النشر: بابل

تاريخ النشر: كانون الثاني ٢٠٠٨

عدد الصفحات:٢٥٦

يشير الكتاب للعلاقة بين الواقع والخيال ، السذاجة والجنون، والتلهف للمسيح القادم الذي سيعيد الانضباط الجيد للعالم.

موسى الذي يلقب نفسه باسم افراييم ، يظن نفسه بالمسيح الجديد، في لحظة تأنيب الذات، في طقوس انجاز فريضته . يفهم ان العناية الالهية قد اشارت اليه وعليه بالشروع في مسيرته.

رفيقه الدائم طائر الكناري الذي يغرد ويرنم المزامير، اما مهمته فهي نسج قلنسوة من أسماء الأموات ، وعند انهاء مهمته سينتهي الزمن ويبدأ عهد جديد . بمسيرته يلتقي بيهودي متجول يكتشف من خلاله قصص المسيحيين الجدد عبر الأجيال ، ويزوده بالعظات المختلفة، تعمقه بالعقائد الخفية ولقاؤه بشخصيات تاريخية توصله للعلاج النفسي ، لكنه يصر سويا مع اليهودي المتجول لاتمام القلنسوة و سرعان ما يكتشف ان عليه نسج اكثر من واحدة.

اسم الكتاب: اليهودي المتجول وصل

المؤلف: البير لوندر אלבר לונדר

دار النشر: ناهر سفريم

تاريخ النشر: كانون الثاني ٢٠٠٨

عدد الصفحات:٢١٥

البير (١٨٨٤-١٩٣٢) ، فرنسي ، من كبار الصحافيين والباحثين ، زار فلسطين في أحداث ١٩٢٩ وعاد إليها عقب انتهاء الأحداث. البير أجرى بحثا شاملا حول اليهود في أرجاء العالم كما وتطرق للابادة ومن ثم انتقل لتل ابيب صفد والقدس.

نقل صورة اليهود بتأثر، واعتمد وصف

مشاهداته. الكتاب يحاول ان يتطرق ل:

– سبب انجذاب اليهود لأرض فلسطين.

– كيف تكون اليهودي الجديد.

– علاقة القادة العرب مع فلسطين.

– علاقة القادة العرب وكيف تطرقوا لموضوع الصهيونية في المنطقة.

– ماذا سيطرأ في المستقبل على الشعبين.

اسم الكتاب: صور عائلية

المؤلف: ماية عراد מאיה ערד

دار النشر: ترجول

تاريخ النشر: كانون الثاني ٢٠٠٨

عدد الصفحات: ٢٦٣

تتطرق ماية بكتابها الجديد لحياة العائلة كونها الأكثر خصوصية وحساسية. الكتاب يحلل معايير الخير والشر عند الناس ، يعرض صوراً أخرى للعائلة، قوة الاحساس المتولوجي على العلاقات العائلية ، الوحدة والمحبة.

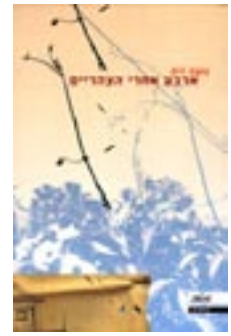

اسم الكتاب: الرابعة بعد الظهر

المؤلف: نوعه زايت נועה זית

دار النشر: ميطر

تاريخ النشر: كانون الثاني ٢٠٠٨

عدد الصفحات: ٢٨٨

ولدت نوريت بالقرية التعاونية فيور الأردن.. نوريت لم تشعر في الانتماء للقرية التعاونية– الكيبوتس ، لذا انتقلت للعيش في حيفا وتل ابيب ، هناك لم تجد نفسها منتمية للمكان من جديد. شخصيتها الغريبة تنعكس في الشخصيات المختلفة التي قابلتها وبعلاقاتها الغير ممكنة التي تؤدي بها في النهاية لان تضع جنينها وحيدة في القرية التعاونية .

حلمها العاطفي يتلاشى؛ ففي لحظة ما من حياتها تكتشف ان كل شيئ عبارة عن كذب ووهم ، وكأن شخصاً ما وعد ولم يف. قصتها الشخصية والحميمة لنوريت تلتئم في عدة نقاط مع احداث الدولة .فالرؤية الشخصية تعكس التغيرات الطارئة على المجتمع الاسرائيلي بشكل عام وعلى الكيبوتس بشكل خاص. تطرح نوريت الشروخ والفجوات في المجتمع المغلق وتتألم نتيجة لفقدان البيت–الكيبوتس.

اسم الكتاب: هيئة المساكن: الهندسة المعمارية والمجتمع باسرائيل

المؤلف: شلي كوهن وطوله عمير שלי כהן וטולה עמיר

دار النشر: ترجول

تاريخ النشر: كانون الثاني ٢٠٠٨

عدد الصفحات: ٣٠٢

يتطرق الكتاب الى التصاميم الأكثر تكراراً حاليا في أرجاء اسرائيل على حدود الخط الأخضر.يتناول المباني المرتفعة، المشتركة ، الخاصة في مشروع "ابن بيتك" والعلاقات الاجتماعية في الحي .

يحلل الكتاب التصاميم الهندسية من حيث الناحية الجمالية والحضارية ، فالكتاب يعرض التصاميم الهندسية كنتيجة لمراحل اجتماعية .

الكتاب يتطرق للتركيبة الاثنية ، القومية ، والمستوى الاجتماعي من خلال تحليل التصميم المعماري ومن خلال تأثير المراحل والتطورات الاجتماعية في اسرائيل على مواد البناء بالقرن الأخير ، وصراع الساكنين على ملاءمة تصميم منزلهم مع نمط معيشتهم وايديولوجيتهم الاجتماعية.

اسم الكتاب: بغبطة وسعادة

المؤلف: طال بن شاحرד"ר טל בן-שחר

دار النشر: ميطر

تاريخ النشر: كانون الثاني ٢٠٠٨

عدد الصفحات: ١٧٥

"بغبطة وسعادة" يستعرض عملاً ذاتياً . قراءة فحواه يساعد على ايجاد رؤية جديدة في مجالات حياتية مختلفة.

عندما نتعلم كيف نعيش من أجل ذات اليوم، من الممكن ايجاد موازنة بين الاحتياجات الشخصية الآنية والأهداف طويلة المدى والاستمتاع بحياة رائعة . الكتاب يحاول إعطاء القارىء امكانية العيش بسعادة ان تمكن من فتح قلبه وعقله .

اسم الكتاب: العلاقة المغربية

المؤلف:شموئيل شغيف שמואל שגב

دار النشر: ميطر

تاريخ النشر: كانون الثاني ٢٠٠٨

عدد الصفحات: ٢٥٥

العلاقة بين اسرائيل والمغرب امتدت عشرات السنين .اتسمت العلاقة بين الدولتين بالسرية. هجرة عشرات آلاف اليهود إلي البلاد يعتبر حدثا تاريخيا من وجهة نظر الدولة الاسرائيلية الوليدة والحركة الصهيونية ، تفاصيل هجرة اليهود المغاربة لم تكشف بعد وما زالت هجرتهم تتسم بالضبابية بسبب الكتمان وإخفاء المعلومات وتناقض العلاقات الدبلوماسية بين المغرب واسرائيل . يتطرق الكاتب لهذه العلاقة الخفية، كما وانه يتناول دولة المغرب كدولة مسلمة بقيادة عربية .

احدى الشخصيات المهمة في بلورة العلاقات الدولية بين المغرب وإسرائيل كان الملك حسن الثاني ، الذي بذل جهدا لبلورة العلاقات الدبلوماسية بين اسرائيل والمغرب .على مدى السنين ربطت علاقة خاصة بين رجال الموساد الاسرائيلي وملك المغرب. يحاول الكتاب التطرق للنقاط التالية:

– عم بحث ملك المغرب في علاقاته الخفية مع الموساد، وعلى ماذا حصل؟

– يكشف الكتاب لأول مرة كماً من المعطيات وقصص وقضايا تاريخية مختلفة لم تعرف من قبل .

– الدور المهم الذي لعبته شخصيات من الجالية اليهودية في فتح قنوات اتصال مع المملكة المغربية.

– كيف حاول ملك المغرب استغلال علاقاتة مع يهود المغرب من اجل التدخل بالسياسة الداخلية والخارجية لإسرائيل.

– عمل الموساد في المغرب

– كيف أثرت العلاقة مع المغرب على المجال السياسي لإسرائيل في سنوات الثمنينيات.

– نظرة نادرة تطل خلف كواليس الحلبة الاسرائيلية السياسية في بداية قيامها.

– الوظيفة الحيوية للملك حسن الثاني في العلاقات.

تقريب

اسم الكتاب: تقريب

المؤلف:عامي شمير עמי שמיר

دار النشر:اتيد

تاريخ النشر: كانون الثاني،٢٠٠٨.

عدد الصفحات: ٢٣٩

يقص الكتاب حكاية أسرة خرجت من ألمانيا واتجهت لإسرائيل ، يطرح الكتاب صوراً مختلفة من فترة إعلان قيام اسرائيل ، وصول الأسلحة لها ، قضية سفينة التالينا المحملة بالسلاح ، حوار مع ديفيد بن غوريون،

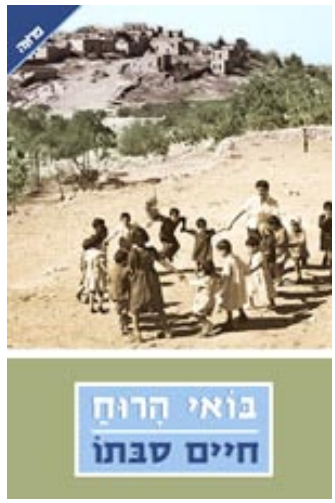

اسم الكتاب: مهاجرو الروح

المؤلف: حاييم سافتو חיים סבתו

تاريخ النشر: كانون الأول ، ٢٠٠٧

عدد الصفحات: ١٦٢

من أنت يا فتى؟

قادم جديد.

هكذا علموني ان أجيب لكل من يسأل

نحن قادمون جدد، أنا حفيد الحاخام شويكه، من مصر.

كلنا قادمون جدد، أجابني فركش ، قادمون جدد ، قادمون قدامى ، هذه الأرض أيضا جديدة وقديمة .

فركش قدم للبلاد قبل فترة طويلة ، ينجذب للفتى ومن هنا تبدأحكاية حكاية العائلة اليهودية على امتداد أربعة أجيال، خلال الحرب العالمية الأولى والثانية. تقص حكايا الأجيال المختلفة وفقا لذاكرة الفتى القادم للبلاد والرجل البالغ الذي قدم قبل فترة طويلة، هذا الفتى الناجي من الابادة ويتعايش مع المستجدات التي تمر بها البلاد. ثلاث ودائع يضعها فركش بيدي الفتى، احدى هذه الودائع تتجلى في التوراة الذي امتلكها والد فركش ورافقته في الحرب الأولى وهي ذات التوراة التي سلمها الوالد لابنه فركش التي رافقته أيضا في حرب أخرى وها هي تنتقل للفتى لتكمل الحلقة.

אור וים הקיפוה: תרבות תל אביבית בתקופת המנדט

اسم الكتاب: الضوء والبر يحيطانها: ثقافة تل-أبيب في عهد الانتداب

المؤلف: عنات هلمن ענת הלמן

دار النشر: جامعة حيفا

تاريخ النشر: كانون الأول، ٢٠٠٧.

عدد الصفحات: ٣٤٣

لماذا قيل ان تل ابيب هي مدينة الحرية، الحركة والمرح؟

هل نجحت المدينة في ان تصبح منطقة أوروبية ؟

كيف نمت وتطورت في المدينة ثقافات مختلفة؟ وظيفة الحركات داخلها؟ بأي مدى عكست الأحداث الجماهيرية داخل تل ابيب ثقافة المدينة العبرية الاولى؟ .

هل نجحت تل ابيب في ان تصبح مدينة اوروبية داخل الشرق الأوسط؟

اسم الكتاب: الرجل السعيد.

المؤلف: تسور شيزف צור שיזף

دار النشر ترجول .

تاريخ النشر: كانون الأول ،٢٠٠٧

عدد الصفحات: ١٦٧

في شتاء ٢٠٠٩ ، تنفجر المقاومة البدوية ويشتعل النقب ،عقب ازدياد الحصار على البدو. قائد المقاومة الابن المتبنى لشيخ شيوخ النقب، ابن الصحراء الذي لم ير تناقضا بين ارضه ومعتقداته وبين الدولة اليهودية التي يحيى بها ، الواقع حطم أمله بمثول أحد ابناء القادمين للدولة ، الكاره للصحراء والمنجذب في ذات الوقت لكل شيء يعكس رومانسية الصحراء ،هذا القادم ظن نفسه الأكثر ذكاء من كل شخص لا يشبهه ، نظرته للارض هي نظرة استخفاف ، هذة قصة صحراوية تظهر بين طياتها الطبيعة الصحراوية وعزم الناس على تحقيق اهدافهم .

اسم الكتاب: لاختي- السياسة النسوية الشرقية

المؤلف: مجموعة من أعضاء حركة أختي- من أجل النساء في إسرائيل

دار النشر: بابل

تاريخ النشر: ٢٠٠٧.

عدد الصفحات: ٣٧٢

ماذا يعني ان تكوني امرأة شرقية داخل مجتمع يهمش دورك؟ تأثير الصوت النسائي الشرقي على الواقع الاسرائيلي؟ كيف يمكن تغير سلم الأفضليات داخل المجتمع الذي تنشأ به هوياتهن؟ كيف يمكن التوصل لحياة متساوية في الحقوق؟

يحوي الكتاب على مقالات وأبحاث ، قصص شخصية تتناول وتطرح الهوية والذاكرة البديلة . هدف الكتاب اظهار الصوت النسائي القيادي في المجتمع ودور المرأة الشرقية في الحلبة السياسية.

قريباً

مدار
المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية
The Palestinian Forum for Israeli Studies (MADAR)

صدر حديثاً عن مدار

المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية
The Palestinian Forum for Israeli Studies (MADAR)